

العرفان الشيعي، نحو مرجعية الروح و الوحدة الإنسانية

محمد علي ميرزائي^١

الملخص

ما تعيشه الأمة من أزمات في كلّ جانب، يقتضي التأمل والتعمق بمنتهى الحرّية والانفتاح، لكي نخترع باجتهاداتنا أسباباً للخروج من المأزق. يبدو أنّ العودة إلى مرجعية الأخلاق والروح و صحوة الإيمان والتسامح الإنساني، وحدها ثمكنا من الانطلاق نحو وحدة إنسانية، إسلامية، عالمية بمنظور حضاريّ شامل. من هنا نشهد أنّ كلّ من حاول تقديم مساهمة في مشروع النهضة، لقد فتح باباً للحديث عن التصوّف والعرفان، ما له و ما عليه.

ليس الجابريّ وحده قد أقحم بفكرة العرفان (والتصوف) في الإشكاليات الحضارية المعاصرة و حاول تحميلها جزءاً من مسؤولية الإعاقّة الحضارية للأمة العربية والإسلامية، وإنما سبقه في ذلك عدد كبير من عباقرة الفكر والفلسفة المؤسسين للعقلية النهضوية والإصلاحية شرقاً وغرباً من أمثال السيد جمال الدين الحسيني الأفغانيّ و الأستاذ مالك بن نبيّ وغيرهما. كما أنّ تيارات فكرية و فلسفية من خارج الأمة الإسلامية كالمستشرقين قد فتحو مجالاً واسعاً لتأملاتهم التاريخية والمعرفية حول المدارس العرفانية والصوفية. ولعل التصنيف الثنائيّ الشيعيّ والسنيّ في التصوف من جعلياتهم. ما يعني أنّ الموقف التحليلي من التصوف والعرفان بات جزءاً من خطابات المشاريع الإصلاحية المعاصرة.

ومهما يكن من أمر، فإن الخطاب الصوفيّ والعرفاني، في العالم الإسلاميّ عموماً قد شابته الحديث عن الأسباب المذهبية والقومية والفلسفية منذ القديم وبالتحديد قام المعارضون للتصوف بتشبيك البنى التحتية النظرية والسلوكية في التصوف مع إيران تارة و التشيع أخرى. و هذا ما يستوجب فتح الدراسات الجادة في الأمر و البحث عن حقائق تاريخية تكشف لنا طبيعة هذه العلاقة.

هذه الدراسة لا ترمي إلى الاعتراف بالتصنيف المذهبيّ للتصوف والعرفان رغم وجود تمايزات منهجية و مفاهيمية بين العرفاء الشيعة والسنة في بعض المفاصل المعرفية والمبادئ النظرية للعرفان. والقصد هنا ليس التصوف الطريقيّ وإنما التصوف الذاتي والنفسي. لأن المناسك الطرقية و الشعائر الصوفية الدارجة بينها، قد اتخذت أشكالاً ثقافية واجتماعية في سياقات كشفية و شهودية من جهة و تقاليد مدرسية ترتبط بالأقطاب والأولياء و شيوخ الطرق من ناحية ثانية. هنا ليس مجال حديث التفارق المذهبيّ وإنما الطرق نفسها في البلد الواحد والمذهب الواحد أيضاً لا تعتمد على مرجعية واحدة. و هي إشكالية كبيرة لا نناقشها هنا و هي أزمة المقاييس والمعائير الصالحة في المعرفة العرفانية الصوفية، لتكون مرجعية مشتركة تلتقي عليها حركة التصوف

^١ حائز على دكتوراه الأديان من جامعة الأديان والمذاهب و عضو الاتحاد العالمي للتصوف.

والعرفان عموماً وفي جميع المدارس والفروع. وإنما القصد من الحديث عن العرفان والتصوف هنا في الدراسة هو ما يتعلق بالرقّي النفسي الروحانيّ بقطع النظر عن الطرق والطرائق.

فرغم أنّ التصوف في حقيقته وروحه ينتمي إلى مجال عابر للمذاهب و أنّه لا يعير اهتماماً مركزياً للشريعة كأولوية علمية أو عملية للسالك، ولا تعود مفاهيمها الأساسية إلى نفس المصادر التي ترجع إليها مفاهيم الشريعة والفقه و مفاصل المذاهب، وهو الحقل الأكثر تداولاً للمضامين بين أتباع جميع المذاهب الإسلامية بل الأديان بعمومها وهذا هو السبب في الصراع التاريخي بين العرفان الشيعي و فقهاء الشيعة و و لعلّ نفس الصراع كان ولا يزال قائماً بين متصوفة المذاهب الأخرى و التيارات الفقهية المحافظة فيها، غير أنّ المجالات التداولية والشروط التاريخية والسياقات القومية والحضارية تركت آثارها على مساراته. عليه فإن المساقات الحضارية الإيرانية (سنة و شيعة) لها آثارها على المدرسة أو المدارس الصوفية بلا شك.

عليه فإن حافظ الشيرازي، سعدي، مولانا جلال الدين البلخيّ الرومي، عطار النيسابوري، عمر الخيام و جميع الذين يُمثّلون العمق للتصوف الإيراني لم ينتموا إلى المذهب الشيعي ولكنهم هم طيلة التاريخ و إلى اليوم يمثلون الرموز الكبرى والأكثر مساهمة في صياغة الروحانية الإيرانية و الأدبيات العرفانية الصوفية الفارسية السنية والشيعية في نفس الآن. دون أيّ حاجز نفسي و هذا في مستوى الثقافة الشعبية. ما يعني أن الأدب الروحانيّ الصوفيّ هو لا يتحرك في المجال التداولي المذهبي و إنما النسق العرفانيّ هو إنساني، روحانيّ تذوب فيه الفوارق المذهبية والانتماءات الدينية أيضاً.

مع ذلك فإنّ الجهد في تأريخ الحركة هذه، يكشف لنا عن أنّ هناك مناهج و قراءات فلسفية تنمايز من بيئة مذهبية و قومية إلى أخرى. و لعلّ التحقيب لمراحل التشكل الصوفيّ في البيئة الإيرانية يساعد على فهم الميزات المدرسية الصوفية. من هذا المنطلق يمكن القول: إنّ التصوف الشيعيّ لقد مرّ بمحطات كبرى تركت آثاراً جسيمة و عميقة على مساره و صاغت له مفاصله و أركانه و أنساقه. و من جملة هذه الفترات والمفاصل يمكن الإشارة إلى سبع مراحل و أدوار:

١- أهل البيت و الإلهام التأسيسيّ للعرفان (نقد الجذور والقراءات المشوهة)

٢- التواصل المنهجيّ العميق بين المدرستين الشيعية والسنية (محي الدين بن عربيّ و ملاصدرا نموذجاً)

٣- الحقبة الصوفية و مآلات التصوف والعرفان

٤- الحكمة المتعالية، المحاولة العرفانية العظمى في إعادة تكوين البنية العرفانية والصوفية الفلسفية والنظرية. (مشروع وحدة العرفان والبرهان والقرآن) أو التعقيل والقرّنة للتجارب الصوفية والعرفانية الشهودية و التأسيس لدمج الفلسفة المشائية والإشراقية .

٥- الصدراتية الجديدة المتمثلة في الطباطبائي، هانري كربن، حسين نصر و...

٦- حقبة التسييس و التثوير (المتزامنة مع الثورة الإسلامية في إيران)

٧- مرحلة العلمنة والتعقيل (سروش و ملكيان و تيار التنوير الدينيّ العالميّ)

بالإضافة إلى تفصيل هذه المحطات الأساسية للعرفان الشيعي وتأثيرها في تجديد الصياغة و التشكل له في العصر الراهن، تسعى هذه الدراسة لإلقاء الضوء على عناصر المماثلة والمفارقة في المدرسة الشيعية للتصوف، دون الخوض في التفاصيل التاريخية لأن الهدف الأساس لهذه المحاولة ليس الجانب التاريخي بقدر ما هو لأجل بيان الملامح الأساسية للعرفان الذي يشكل مفارقة منهجية مع التصوف دون أن يتعارض معه في العمق. و فرضية هذه الدراسة هي أن العرفان الشيعي الصدرائي في حلقتها الأخيرة بات بمثابة الميزان والمعيار للفصل المنهجي وأن التصوف المعترف به أصبح خاضعا للقواعد العرفانية النظرية الفلسفية. و عليه فإن فارقاً كبيراً قد سبب أن يفترق طريق العرفان عن التصوف الطريقي و خيم على التصوف الشيعي روح العرفان النظري الفلسفي و بخاصة بعد ملاصدرا الشيرازي.

و في الفصل الأخير من الدراسة يسعى الباحث لإثبات فعالية المنطق المنهجي الفلسفي المعرفي للعرفان في مواجهة التحديات الفلسفية المعاصرة و هذا دور لا يسنح للتصوف الطريقي طبعاً. و يمكن إعطاء مثال الدراسات الوجودية الإنسانية في العرفان النظري و إمكانياتها الكبيرة في التعامل المنهجي الفلسفي مع الفلسفات الحداثية و ما بعد حداثية و هنا دراسات عديدة في الجامعات تقوم بتحليل المقارن بين الحكمة المتعالية و الفلسفات الحداثية بكل فروعها.

كما أن الدراسة تعتمد على فكرة فعالية المدرسة الصوفية والعرفانية في انجاز التواصل والتقارب العميق بين المجتمعات الإسلامية و بل البشرية عموماً وأنها ستنتج في كل ما فشلت فيه المدرسة الفقهية الفارغة من الروحانية والمعنى الإيماني. من الواضح أن التصوف لا يسعى لتطبيق الشريعة على الطريقة المألوفة في الإسلام السياسي وإنما يعطي الأولوية لنشر الحقيقة الروحانية و مرجعيته الأساسية هي أخلاقية و عقلية إيمانية دون الحط من قيمة الشريعة.

المصطلحات الأساسية: العرفان الشيعي، ملاصدرا الشيرازي، الحكمة المتعالية، علمنة التصوف، تسييس العرفان